مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (32) العدد (3)2010
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (32) No. (3) 2010

القيم بين الثبات والتغير

علي طوبال علي *

(تاريخ الإيداع 17 / 6 / 2010. قبل للنشر في 11 / 7 / 2010)

□ ملخّص □

يتناول هذا البحث موضوع القيم بوصفه مبحثاً فلسفياً أصيلاً أخذ حيزاً مهماً من نتاج الفلاسفة على اختلاف مشاربهم، فيؤكد على ذلك من خلال استعراض آراء مختلفة لمشتغلين في الفلسفة وفي العلوم الاجتماعية، وهو يحاول أن يتلمس ما هو مشترك وما هو مختلف في مواقفهم .

ويؤكد البحث على أهمية القيم في الحياة الإنسانية وعلى دورها في العمل وفي تفسير السلوك.

فيمكن أن ننظر إلى القيم بوصفها تكثيفاً للخبرات،كما يمكن اعتبارها محفزات للعمل ومعايير للسلوك.

ويرى هذا البحث أن الخلافات الفلسفية حول طبيعة القيم تفسر أساساً بعوامل إيديولوجية وأخرى معرفية تعكس مستوى التطور في هذا المجتمع أو ذاك.

الكلمات المفتاحية: قيمة، ثبات، تغير، سوسيولوجيا، إيديولوجيا، معلومات، سلوك،فعل.

* قائم بالأعمال– قسم الفلسفة– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (32) العدد (3)2010
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (32) No. (3) 2010

Values between Stability and Change

Ali Tobal Ali *

(Received 17 / 6 / 2010. Accepted 11 / 7 / 2010)

□ ABSTRACT □

This research deals with values as an original philosophical field takes an important part in the product of philosophers during all periods.

The research asserts that opinion by reviewing different philosophical and Sociological opinions.

The research tries to find the common and the different in their attitudes.

The research affirms the importance of value in human life, and affirms its role in Work, and in explaining behavior.

We can deal with values as a condensation of experience, and we can deal with it as Promoters of work, and criteria of behavior.

This research affirms that the philosophical differences can be explained by Informative and Ideological factors. It reflects the level of evolution in this society or that.

Key words: Value, Stability, Change, Sociology, Ideology, Information, Behavior, Action.

* **academic assistant, Department Of Philosophy, Faculty Of Arts And Humanities , Tishreen University, Lattakia ,Syria**

مقدمة:

إن للقيم أهمية كبيرة في حياة الإنسان قديماً وحديثاً، حاضراً ومستقبلاً؛فهي التي تحدد سلوكه،وهي التي تحفزه إلى هذا العمل وتبعده عن ذاك،وهي التي يقاس بها أداؤه،وهي التي يحكم من خلالها على مواقفه وسلوكه.

ويعتبر فهم القيم والتعمق في دراستها مطلباً معرفياً وضرورة حضارية لابد منها، إن أردنا التعامل بطريقة أكثر نجاعة وأكثر صوابية مع واقعنا وقضايانا؛فأنا لا أرتقي في فهم سلوك فرد أو جماعة إلا إذا عرفت القيم التي تكمن خلف هذا السلوك أو ذاك؛وإذا تعرفت على القيم الكامنة خلف السلوك،واستطعت أن أؤثر فيها وأن أغيرها عندئذ أستطيع أن أؤثر على السلوك وأن أغيره.

والقيم موضوع إشكالي ومبحث متجدد طالما استنفر الأقلام واستنهض الهمم.

أهمية البحث وأهدافه:

تكمن أهمية هذا البحث في أنه يدقق في الخلافات الفلسفية حول طبيعة القيم ساعياً لامتلاك فهم قيمي موضوعي وعميق،ويعتبر هذا الفهم شرطاً ضرورياً للتعمق في فهم أحداث المجتمع وأزماته،وللتأسيس لضبط هذه الأزمات وتجاوزها،فالقيم تؤثر في حياتنا أكثر مما نعتقد بكثير؛فهناك منظومات قيمية تكرس التخلف وتعيد إنتاج الأزمات،وهناك منظومات قيمية تؤسس للتطور وترتقي بالإنسان فكراً وسلوكاً وشروطاً حياتية،وهذا البحث يسعى لامتلاك فهم نوعي بالقيم وبالعوامل الأكثر أهمية في بنائها وتغيرها وتغييرها.

منهجية البحث:

لقد عمدنا إلى تفحص أراء فلسفية وسوسيولوجية مختلفة في طبيعة القيم وفي تصنيفها ودورها واعتمدنا المنهج المادي التاريخي في تحليلها وفهمها ونقدها واستخلاص النتائج منها.

لقد دققنا وبحثنا في ضوء فكرة موجهة للبحث تشير إلى ارتباط القيم بالحياة وإلى تغيرها عبر سيرورة الفعل الإنساني،وبحثنا عن العوامل الأكثر أهمية في بناء القيم وفي تغيرها.

أضواء على مشكلة القيم:

إن مبحث القيم هو واحد من المباحث الثلاثة التي تعنى بها الفلسفة، والتي تعتبر ميادين نشاطها والعناوين العريضة التي يندرج تحتها النتاج الفلسفي على اختلاف تلوناته، وهذه المباحث هي مباحث الوجود والمعرفة والقيمة، ويعالج المبحثان الأوليان (الوجود والمعرفة) ما هو كائن، أما المبحث الثالث (مبحث القيم) فيعالج العلوم المعيارية التي تتناول ما يجب أن يكون،ولكن هل ينفصل ما يجب أن يكون عما هو كائن؟ وهل يمكن للفيلسوف أن يتجاهل ما قاد إليه التفلسف في ميداني المعرفة والوجود لدى خوضه في المبحث الثالث (مبحث القيم)؟.

إن كل منتج فلسفي ينطوي – بشكل صريح أو ضمني – على عناصر قيمية وإن « نظرة ممعنة إلى تاريخ الفكر الفلسفي توضح بجلاء أن كل فلسفة تنطوي على مسعى قيمي،ولكن الإجابة عن مشكلة القيمة لم تطرح بصورة معزولة عن سواها إلا في العصر الحديث، حين حرص الباحثون على استقلال هذه المشكلة عن سائر المشكلات الفلسفية والميتافيزيائية المحضة،بل حين عملوا على النظر إلى هذه المشكلات الميتافيزيائية ذاتها من وجهة نظر قيمية،وحاولوا دمجها في فلسفة قيم، عملت بدورها على تجديد الطريقة الميتافيزيائية وإغناء مضمونها،ثم إن الباحثين ما

انفكوا يجهدون للإحاطة بمشكلة القيمة من حيث جملتها،وقد انصرفوا إلى دراسة القيم باعتبار علاقتها بالحاجات الإنسانية » [1].

و منذ أن بدأ الإنسان بإنتاج الأساطير في مساعيه لفهم العالم من حوله فهماً يمكنه من العيش فيه والتفاعل معه على نحو يلبي احتياجاته المادية والسيكولوجية، وجدت القيم وراحت تكتسب المعاني والمضامين الإنسانية ،وتمارس تأثيراتها على الإنسان فرداً وجماعة.

إن الإنسان البدائي في محاولاته الأولى للفهم،فهم ذاته مشاعره وما يتعاقب عليه من أحاسيس،وخبر ما يسوؤه وما يغبطه،فراح يعطي القيمة لكل ما يريحه ويفرحه ويسلبها عما يؤلمه ويحبطه.

وتلك كانت البداية الأولى لنشأة القيمة التي تطورت واغتنت مع نمو المجتمعات وارتقائها .

وبعيد فهم الإنسان لذاته انتقل إلى فهم العالم من حوله فأسقط ما يعتريه من مشاعر الحزن والفرح وما يحمله من طموحات ورغبات على العالم معتقداً أن الطبيعة تنطوي على قوى حيوية تحب وتكره،تطمح وترغب،وهذا ما أشير إليه في الأدبيات الفلسفية التي بحثت في نشأة الأساطير ووظائفها بمبدأ حيوية الطبيعة، حيث أضفي على الطبيعة من الخصائص والسمات مالا تملكه وما شكل معوقاً لفهمها فهماً يستجيب لمتطلبات التقدم المتواصل.

لكن لم يكن بالإمكان تقديم فهم موضوعي وحضاري بالعالم قبل نضج مجموعة من الشروط، منها في ذهن الإنسان ومنها في نتاجه، ومنها في علاقاته بالأخر، ومنها في الطبيعة المعدلة بفعل النشاط الإنساني.

إن إنشاء الأساطير وإضفاء المعاني والقيم على موضوعات العالم وأحداثه عبر عن حاجة سيكولوجية لدى الإنسان للإحساس بالأمان في العالم الذي يعيش فيه، ولتحسين القدرة على التكيف مع أحداث العالم ومتغيراته .

لقد خلق الإنسان قوى غيبية وأعطاها القيمة، ثم بثها في العالم الذي يعيش فيه،وقد استطاعت تلك القوى بعيد إنشائها أن تلعب دوراً هاماً في حياة الإنسان، فقد منحته الكثير من الدفء والطمأنينة اللذين كان يفتقدهما، لكن تلك القوى الغيبية ما لبثت أن تحولت بما احتوت من قيم إلى مصادر لقهر الإنسان واستعباده وتعطيل الكثير من إمكاناته وطاقاته.

وكان على الفكر الفلسفي بعد أن توفرت شروط نشأته أن يضطلع بمهام النقد والتقويم المستمر للفعاليات والأنشطة الإنسانية،وأن يعيد النظر بالمفاهيم التي أنتجتها الفعالية الإنسانية عن الواقع وعن علاقة الإنسان بالواقع؛وكان عليه أن يعيد النظر في مصادر القيم و مرتكزاتها و طبيعتها وأن يبحث في إمكانية التحكم في بنائها و تأثيراتها .

لقد شكلت نشأة الفلسفة عند اليونان – وإن ارتبطت بمؤثرات مشرقية سابقة – نقلة نوعية في طرائق التفكير الإنساني فتغيرت نظرة الإنسان إلى ذاته وإلى العالم وإلى منظومات القيم التي من المفترض أن تحكمه وتحكم بهذا القدر أو ذاك، وعلى هذا النحو أو ذاك العالم الذي يعيش فيه.

فقد بدأ الفكر الفلسفي يكسر الكثير من القيود التي كبلت العقل الإنساني وأعاقت انطلاقته ونهوضه وإن كانت طبيعة الكسر مشروطة اجتماعياً وتاريخياً؛ورغم تلك المشروطية وما يتمخض عنها فقد كانت الفلسفة عموماً في نشأتها وتطوراتها تمرداً على ما بدا معتلاً وزائفاً، كما كانت تأسيساً لحق إنساني في السؤال والاختبار و التدقيق والتمحيص قبل الاعتقاد وقبل تبني الأفكار والالتزام بمنظومات القيم.

[1]- العوا،عادل،العمدة في فلسفة القيم،دار طلاس،دمشق،1986،ص46 .

إن فعل التفلسف عند هذا الفيلسوف أو ذاك، في هذا العصر أو ذاك، هو محصلة لتفاعل إمكاناته الذهنية (التي لا تشكل معطى ناجزاً ونهائياً وإلى الأبد) وما يتاح له الإطلاع عليه وتمثله من التجارب والخبرات مع تحديات عصره .

إن العناصر الداخلة في العملية التفاعلية المشار إليها تجد انعكاساً لها في نتاج فعل التفلسف؛فموقع الفيلسوف الطبقي ومزاجه ومدى اطلاعه ونوعية ذلك الإطلاع تجد تعينات لها في النتاج الفلسفي بهذا القدر أو ذاك،وعلى هذا النحو أو ذاك،وهذا يسحب على موضوعات القيم بتفرعاتها، كما يسحب على غيرها من الموضوعات التي شغلت وتشغل الفلاسفة على مر العصور، بل إنه يسحب على موضوعات القيم بدرجة أكبر وبأبعاد أكثر تأثيراً.

إن مسألة القيم شغلت أذهان الفلاسفة على مر العصور، واحتلت حيزاً مهماً من نتاجهم الفلسفي، لكن تصوراتهم وتصريحاتهم حول طبيعة القيم وماهيتها وحول ينابيعها ومصادرها وترتيبها وحول محدوديتها أو كثرتها،وحول كونها مطلقة أو نسبية،ذاتية أو موضوعية،ثابتة أو متغيرة،إلهية أو إنسانية،كانت متباينة أشد التباين.

لقد اتفق الفلاسفة على أن القيم شأن إنساني، وأن الإنسان وحده معني بالقيم دون الكائنات الحية الأخرى سواء أكان منتجاً للقيم أم كان ممتثلاً للقيم المفروضة عليه من نظام متعال مهما كانت طبيعته؛لكنهم فيما عدا ذلك كانوا مختلفين ومتباينين.

وطالما اختلف المشتغلون في موضوع القيم من سيكولوجيين وسوسيولوجيين وفلاسفة «ففي حين أن فرويد ينطلق من تجارب وواقع معطى،فإن كانط يتعالى على هذا الواقع وينشئ القانون الأخلاقي بعيداً عن التجربة».[2]

ويمضي آخرون إلى فهم خاص للحقائق وللقيم فهاهو وليم جيمس يؤكد على قيمة الحقيقة ويذهب «إلى اعتبار الحقيقة هي اليسر والنجاح » [3].

وترجع اختلافات الفلاسفة وتبايناتهم فيما يتعلق بقضية القيم وفي غيرها من القضايا الفلسفية إلى تداخل مجموعة من العوامل منها اختلاف انتماءاتهم الإيديولوجية واختلاف طبائعهم وتكويناتهم السيكولوجية، وكذلك اختلاف مستويات التطور العلمي و المعرفي باختلاف الأزمنة التي عاشوا فيها، وكذلك اختلاف العلاقات الاجتماعية التي تحكم الأفراد في هذا العصر أو ذاك.

وبعيداً عن السجالات الفلسفية، سأعمل في هذا البحث إلى معالجة موضوع القيمة من خلال مجموعة من العناوين الفرعية مركزاً على وظائف القيم وعلى علاقتها بالعمل وبالإيديولوجية، مشيراً إلى أنواع القيم وإلى المداخل الأساسية لتصنيفها بالاعتماد على أكثر الأفكار والمواقف رواجاً وشهرة وعصرية، دون إغفال للخلافات الفلسفية ولدلالاتها حول هذا الموضوع المهم،ثم سأعمد إلى تكثيف وعرض أراء نخبة من أهم الفلاسفة الذين كتبوا في موضوع القيم والذين يمثلون اتجاهات وتيارات ومواقف مختلفة في تاريخ الفلسفة.

[2] -العجيلي،محمد علي،الأخلاق عند فرويد،دار طلاس،دمشق،1989،ط1،ص210 .

[3] - لالاند،أندريه،العقل والمعايير،ترجمة عادل العوا،مطبعة الشركة العربية،دمشق،1966،ص52 .

أراء فلسفية وسوسيولوجية مختلفة في طبيعة القيم

لويس لافيل:

لقد أدرك الفرنسي لافيل أهمية القيم وأولاها قدراً كبيراً من الاهتمام، وقدم أراء قيمية تتصف بالأصالة والعمق والغنى،وقد ربط لافيل القيم بوظائف الشعور مؤكداً أن هذه القيم هي نية هذه الوظائف وغايتها في آن معاً،وهو يرى أن كل قيمة في كل وظيفة من وظائف الشعور تبين كيفية ارتباط الذات بالشروط الموضوعية تلك الشروط التي تحدد كيفية إسهام واشتراك كل ذات في النشاط الاجتماعي .

ورأى لافيل أن القيم من حيث وظائفها وتصنيفها وارتباطها بالإنسان تصنف في ثلاث زمر :

1- قيم الإنسان في العالم :وهنا يؤكد أن الإنسان جزء من العالم له متطلباته وحاجاته، وفي هذا المجال تبرز القيم الاقتصادية والانفعالية المرتبطة بتلبية حاجات الإنسان المادية وضروراته الحياتية،ويعتبر لافيل أن إرضاء القيم الاقتصادية والانفعالية يعتبر شرطاً لازماً وأساسياً للتطلع إلى القيم الأعلى؛ فمن ذا الذي يستطيع أن يتطلع إلى المثل العليا إذا كان محروماً من تلبية حاجاته الأساسية كالمأكل والملبس والمأوى .

2- قيم الإنسان أمام العالم : وهنا يتحرر الإنسان نسبياً من أسر حاجاته الأساسية ويقف من العالم الذي يعيش فيه موقف المتأمل والمدقق،فتبرز إذ ذاك القيم العقلية والمعرفية والجمالية.

3- قيم الإنسان فوق العالم : وهنا يجد الإنسان نفسه أمام القيم الأخلاقية والدينية التي تسمو على القيم السابقة وتعتبر تاجاً لها.

والإنسان عبر المواقف الثلاثة التي رسمها لافيل يرتقي من كونه كائناً بيولوجياً منغمساً في الطبيعة (النمط الأول) إلى كونه كائناً يتأمل الطبيعة ويمتلكها معرفياً وجمالياً (النمط الثاني) إلى كونه كائناً يتجاوز الطبيعة (النمط الثالث)عبر القيم الأخلاقية والدينية .

وفي كل مرتبة من هذه المراتب الثلاث للقيم « يطالعنا نمطان من القيمة بحسب اتجاه شعورنا إلى الخارج أو إلى الباطن : [الاقتصادي] قيمة من حيث أنه يكمن في الموضوع و [الحقيقي] قيمة من حيث أنه يكمن في التصور . و [الأخلاقي] قيمة من حيث أنه يكمن في العمل. ولكن من الجائز أن ننفذ إلى باطن كل قيمة من هذه القيم،وعندئذ يؤثر الموضوع في النفس،ويغدو التصور جمالياً،ويصبح العمل روحياً. إن الحقيقة العلمية قد تستطيل إلى حقيقة نفسية ،والجمال الحسي ليس سوى تعبير مادي عن الجمال المعنوي،ولكن القيم كلها ترغمنا على الرجوع إلى الينبوع الروحي عند تعمقها »[4].

إن القيم العقلية والجمالية تحمل تأكيداً وإحالة إلى الموضوع في الوقت الذي تحيل فيه القيم الأخلاقية إلى الذات، سواء تعلق الأمر بذاتنا أم بالذات الكامنة في الأخر،والقيم الأخلاقية تختلف عن القيم المعرفية والجمالية في تأكيدها على النية وعلى أهميتها ودورها.

ويرى لافيل أن تركيب القيم يتحقق في القيم الأخلاقية التي تعتبر من وجهة نظره وفي أغلب الأحيان « بمثابة فؤاد القيم الروحية والقيم الدينية » [5].

---

[4]- العوا،عادل،العمدة في فلسفة القيم،دار طلاس،دمشق،1986،ص436 .

[5] - العوا،عادل،العمدة في فلسفة القيم،دارطلاس،دمشق،1986،ص437 .

إن القيم الدينية باستنادها إلى المقدس دعت وتدعو في أحيان كثيرة إلى الانسحاب من عالمنا إلى عالم يتجاوزه،لكن القيم الأخلاقية من وجهة نظر لافيل تدعو إلى إدماج العالمين ولحم الواحد بالأخر،إنها تنحو إلى السيطرة على عالم التجربة لتجعله مطابقاً للقيم المعتمدة والموثوقة.

إن القيم الأخلاقية تجد مكاناً لها في صميم مختلف القيم دون استثناء، كما أن لها دوراً كبيراً في تشكيل تلك القيم وبنائها .

والقيم الأخلاقية ترتبط ارتباطا وثيقاً بالإرادة وبمتعلقاتها،وهي بالنسبة للافيل « الشرط الذي بدونه لا يمكن طرح قيمة أخرى » [6].

ماكس شلر:

إن الفيلسوف الألماني ماكس شلر هو واحد من أشهر الفلاسفة الذين عالجوا موضوع القيمة،لقد ركز جل إهتمامه على موضوع القيم وأخذ الكثير عن برنتانو وهوسرل،وقدم إسهامات نوعية في مجال الدراسات الأخلاقية وقد «اعتبر أعظم الفلاسفة الذين أسهموا في تقدم الأخلاق بعد كانط » [7].

وقد ذهب خلافاً لما قاله كانط إلى أن القيمة هي التي تنتج الواجب وليس العكس،وقال بموضوعية القيم وبأنها مما يكتشفه الإنسان وليس مما يصنعه ويخترعه، كما زعم نيتشة،وكان شلر يؤكد من خلال طروحاته على ثبات القيم وقصديتها وعلى موضوعيتها وإطلاقيتها .

فالقيم بالنسبة لشلر هي التي تحدد الشعور، وهي تدرك بحدس قبلي سابق على التجربة، ولكنه من طبيعة انفعالية، وبذا يكون شلر قد أعاد الاعتبار للعاطفة وأعطى لها دوراً مهماً في الحياة الأخلاقية خلافاً لمواقف كانط التي كانت تؤكد على الواجب وعلى العقل.

إن القيم التي تدرك بحدس انفعالي هي قيم مستقلة تماماً عن الشعور الإنساني وإنها بالنسبة لشلر تشبه المثل الأفلاطونية الموجودة وجوداً مستقلاً عن الإنسان، وعما صنع على غرارها .

والحدس القيمي عند شلر بقصديته وبشحنته الانفعالية يقود إلى مفهوم الله بوصفه قيمة عليا .

إن شلر يؤكد دائماً على أن القيم كيفيات تتصف بالاستقلالية والثبات، وتدرك بالعاطفة، ليس بانفصالها بل بعلائقها وبتدرجها وتسلسلها.

إن عملية إدراك القيم عند شلر تشبه حدس الماهيات عند هوسرل ولكن « حدس القيمة يبطن بحدس انفعالي يتناول درجات القيم ونظامها،حدس بعمل الترجيح أو التحبيذ ،أو النفور والاستهجان وهذه الحدوس على اختلافها تخضع لبداهات تتيح إقامة نظام قيمي وحيد على نحو قبلي سابق للتجربة » [8] .

[6]– العوا،عادل،العمدة في فلسفة القيم،دار طلاس،دمشق،1986،ص438 .

[7]– العوا،عادل،العمدة في فلسفة القيم،دار طلاس،دمشق،1986،ص150 .

[8] –العوا،عادل،العمدة في فلسفة القيم،دار طلاس،دمشق،1986،ص154.

فريدريك نيتشه:

يعتبر فريدريك نيتشه واحداً من أهم من كتبوا عن القيم في تاريخ الفلسفة، وقد شغلت المسائل القيمية حيزاً هاماً من تفكير هذا الفيلسوف الألماني؛فقد قرأ نيتشه عصره قراءة حاذقة،وقرأ طبيعة القيم فيه ودرس كيفية تأثيرها، ووجه انتقادات لاذعة لتلك القيم التي تضمنت ما يبعد الإنسان عن جوهره وما يعطل طاقاته وقواه.

ولئن كانت فلسفة نيتشه في جانب كبير منها تعبيراً عن مزاجه وظروفه،فقد استطاعت تلك الفلسفة بما حوت من نباهة أن تزعزع الإيمان بقيم طالما كبلت العقل الإنساني وكرست الجهل والتخلف.

لقد سخر نيتشه من أخلاق الشفقة والتواضع والغيرية،وكشف عن زيف تلك الأخلاق وطرح بديلاً عنها أخلاق القوة والمغامرة والبطولة،ودعا إلى مفهوم الإنسان الأعلى السوبرمان الذي يعلو على ذاته باستمرار ويتجاوز ذاته باستمرار .

لقد تميز نيتشه عن سابقيه بأنه لم يركز لدى معالجته لقضية القيمة على أساسها بل كان تركيزه منصباً على طبيعتها،فراح يربط بين إرادة القوة والقيمة،ورأى : « أن الإنسان هو الذي يخلع القيمة على الأشياء ويضفي عليها المعنى »[9] .

لقد نظر نيتشه إلى الوجود بوصفه حياة، ونظر إلى الحياة بوصفها إرادة، كما نظر إلى الإرادة بوصفها إرادة قوة،لأن الحياة لاتستطيع أن تبقى إلا على حساب حياة أخرى، وهذا يحتاج إلى القوة التي هي جوهر الحياة، وهي ما يتجلى في النمو والتسلط والتملك والتوسع والسيطرة .

إن الإنسان بوصفه إرادة قوة تسعى نحو الامتلاء والتوسع والسيطرة ،يخلق القيم،ولكن من خلال تنازع الإرادات، يظهر في التاريخ الإنساني نمطان أخلاقيان تتردد أصداؤهما بالتناوب هما أخلاق السادة وأخلاق العبيد .

إن أخلاق السادة هي الأخلاق الأرستقراطية التي طبعت بطابعها الحقب الأكثر أهمية وانجازاً في التاريخ ،وفي هذا النمط الأخلاقي يتصالح الإنسان مع ذاته ويكتشف ذاته الحقيقية محطماً الأصنام الفكرية التي أنتجتها الأديان والفلسفات وبعض الأنماط الأخلاقية المرتبطة بالزهد وبالخنوع وبغريزة القطيع .

إن أخلاق السادة تدعو إلى التحرر من روح القطيع وإلى تحفيز الإبداع وتأكيد الذات والعلو عليها باستمرار بحيث يغدو الإنسان الأعلى (السوبرمان) هو الهدف الحقيقي للإنسانية .

وخلافاً لأخلاق السادة تعتبر أخلاق العبيد عندما تسود وتنتشر مؤشراً على الركود الحضاري وأداة لإنتاجه وتكريسه،حيث يكون الإنسان محكوماً بجملة من الأصنام الفكرية (هي أصنام الدين وأصنام الفلسفة وأصنام الأخلاق).

والإنسان في أخلاق العبيد خلافاً للواقع يؤمن بعقل غير مرتبط بالحياة وبمتطلباتها،ويظن أن العقل مستقل عن الحياة والوجود ومتعال عليهما،وينزع الإنسان في هذا الموقف الأخلاقي إلى الإقرار بوجود عالم أخر يعلو على عالم الواقع يشكل الإيمان به تعويضاً عن الإخفاقات التي يعيشها الإنسان .

وبدلاً من أن يؤمن الإنسان بالقوة والامتلاء نراه في هذا الموقف يجعل من المسالمة والتواضع فضائل،وهنا يغدو الضعف فضيلة ويبدو العجز عن الانتقام كرهاً للشر، ويغدو الخنوع طاعة والعجز صبراً.

وهذه القيم التي تنتظم في أخلاق العبيد بوصفها محددات للعمل وقواعد للسلوك تشكل بتعيناتها وبما تفضي إليه تشويهاً واعتداء على إنسانية الإنسان التي هي صيرورة وسمو وتجدد وإبداع .

---

[9]– قنصوه،صلاح،نظرية القيمة في الفكر المعاصر،دار الثقافة للنشر والتوزيع،القاهرة،1987،ص167 .

إن الإنسان هو صانع القيم طبقاً لنيتشه ويجب أن يصلح الخلل ويعاد الاعتبار إلى الإنسان بوصفه خالقاً ومبدعاً على نحو ينسجم مع اعتقاده الراسخ بأن الطبيعة الإنسانية « تمتلك القدرة على خلق ما هو أرفع منها وإبداع ما يسمو فوقها »[10] .

وتأسيساً على ذلك اعتبر نيتشه أن إرادة القوة والسعي إلى الامتلاء وتأكيد الذات وما يرتبط بهما من مغامرة وإبداع هي الخيرات الأسمى والفضائل الأعلى، وهي ما يجب أن يتبع إن أردنا أن نعيد الإنسان إلى إنسانيته ونعيد إنسانيته إليه .

رينه أوبير:

إن رينيه أوبير هو عالم اجتماع فرنسي استنفر طاقته وهمته لتقديم فهم نوعي للمجتمع مؤسس على فهم قيمه،فقد استطاع أن يقدم قراءة نوعية للقيم تربط بين القيم وبين الوظائف الاجتماعية التي يناط بالقيم الاضطلاع بها.

إن الوظائف الاجتماعية التي يتطلب انجازها تضافر جهود فردية عديدة تحتاج إلى قيم تنظم هذه الجهود وتمكنها من أداء الوظيفة المطلوبة .

ورينه أوبير يعتبر تصنيف القيم قضية مهمة تقود إلى امتلاك فهم عميق بالقيم وبوظائفها وأدوارها،وهو يرى أنه من الممكن تصنيف القيم باعتماد الوظائف الاجتماعية،وعندما اضطلع أوبير بمهمة تصنيف القيم رابطاً إياها بالوظائف الاجتماعية؛بدأ بأن قسم الوظائف الاجتماعية إلى زمرتين تقابل كل زمرة منظومة قيمية مناسبة، فهناك وظائف اجتماعية مشخصة وتقابلها القيم المادية، وهناك وظائف اجتماعية مجردة وتقابلها القيم الثقافية،وتنقسم الوظائف الاجتماعية المجردة والمشخصة إلى أنواع يقابلها أنواع من القيم .

فالوظائف الاجتماعية المشخصة تضم خمسة أنواع وتقابلها خمسة أنواع من القيم :

1- الوظائف العضوية وتقابلها القيم الحيوية .
2- الوظائف الحسية وتقابلها القيم الخاصة بالذات.
3- وظائف الاكتساب وتقابلها القيم الاقتصادية.
4- وظائف الإنتاج وتقابلها القيم التقنية.
5- وظائف التنظيم والتنسيق وتقابلها القيم السياسية.

أما بالنسبة للوظائف الاجتماعية المجردة فإنها تقسم بدورها إلى خمسة أنواع، يقابلها خمسة أنواع من القيم:

1- وظائف المعرفة وتقابلها قيم الحقيقة .
2- وظائف الأخلاق وتقابلها قيم الخير.
3- الوظائف الجمالية وتقابلها قيم الفن والجمال.
4- وظائف الألفة والمحبة وتقابلها قيم الحب.
5- وظائف التركيب الكلي وتقابلها القيم المتصلة بالدين والفلسفة.

وبعد أن قدم أوبير تصنيفه أشار إلى أنه تصنيف صوري يراد منه تحصيل فهم جيد وعميق بالقيم وبأدوارها ووظائفها،وبين أن الواقع قد يخالف هذا التصنيف بهذا القدر أو ذاك،على هذا النحو أو ذاك.

[10]– قنصوه، صلاح،نظرية القيمة في الفكر المعاصر،دار الثقافة للنشر والتوزيع،القاهرة،1987،ص172.

إن المجتمعات المختلفة تمتلك نظرات وتصورات مختلفة للقيم ولترتيبها على أنحاء مختلفة «فهذا مجتمع يهب مكانة عالية للقيم الجسدية،وهذا أخر يحقرها ويغلو في ذلك،وهذا مجتمع يجعل الرجحان للقيم الصناعية التقنية،وذاك أخر يحط من شأنها بالقياس إلى قيم الثقافة،وههنا مجتمع يقبل بأولوية المعرفة على الأخلاق،وهناك أخر يقول بأولوية الأخلاق على الفن،وثمة مجتمع يغرق كل شيء في الدين،وأخر ينزع إلى الإقلال من شأنه» [11].

اميل دوركهايم:

لقد بين السوسيولوجي البارع اميل دوركهايم أن القيم ذات طبيعة إشكالية تتأرجح بين بعد سيكولوجي ذاتي وأخر موضوعي،وكان دوركهايم يرفض النظرة الأحادية الجانب لدى من يقول بأن القيمة خاصة موضوعية تمتلكها الأشياء وتؤثر بالذات،ولدى من يقول :بأن الذات الإنسانية هي التي تخلع القيمة على أشياء العالم وموجودا ته .

وكان دوركهايم يربط القيمة بالفكر الجمعي وبمتطلبات إنتاجه واحتياجاته وبمستويات تطوره،وبذا كان يحل الإشكالية بين الذاتي والموضوعي في قضية القيم .

إن المجتمع بالنسبة لدوركهايم ليس مجرد مجموع عددي لأفراده، بل إنه كيان جمعي يتمتع بالقوة والخصوصية والاستقلالية والتميز (من حيث النوع) عن العالم الفردي؛ إن هذا الكيان الجمعي هو الذي ينتج القيم ويجددها حسب دوركهايم، وهو الذي يفرضها على الأفراد بنوع من القسر الاجتماعي « فالمجتمع هو الذي يدفع الفرد ويقسره على أن يعلو فوق ذاته،ويتيح له الوسائل التي يحقق بها ذلك »[12] .

إن القيم ذات طبيعة اجتماعية، إنها نماذج أو مثل تتجاوز الأفراد وتحكم سلوكياتهم، ولكن هذه المثل ليست « تجريدات أو تصورات ذهنية باردة تعوزها القوة والحرارة والقدرة،بل هي دينامية تكمن من ورائها القوى الفاعلة للواقع الجمعي » [13].

إن المجتمع ينطوي على سلطة خلقية تفرض نفسها على الأفراد، كما أن الأفراد ينزعون إلى تحقيق الخير الذي تنطوي عليه المثل الاجتماعية وبذا تكون الظاهرة الأخلاقية بطبيعتها الاجتماعية إلزاما مفروضاً من جهة وخيراً مطلوباً من جهة أخرى،ونشدان هذا الخير يحتاج إلى إرادة يصارع فيها الإنسان الفرد طبيعته وحاجاته.

والكيان الاجتماعي عند دوركهايم ينطوي على آليات عقابية كالاستهجان والسخط والنبذ وغير ذلك مما يفرض على الأفراد الذين يستهترون بمثل المجتمع وقيمه ويتمردون عليها.

إن القيم هي نتاج الوجدان الجمعي وهي تصورات مشتركة تتداخل وتتفاعل معاً وينظم علاقاتها بالأفراد وببعضها البعض قوانين اجتماعية شبيهة بالقوانين الطبيعية؛على عالم الاجتماع أن يكتشفها ويوضحها ويعرف بها.

إن المجتمع لا يحيط بالإنسان من الخارج وإنما يحدق في عالمه الداخلي،فقيم الفرد وأولوياته لا تنفصل عن ارتباطاتها الاجتماعية .

إن القيم الجمعية تصورات مشتركة « ومن شأن التصورات المشتركة أنها تؤلف وجداناً اجتماعياً حقيقياً ينساب داخل الضمائر الفردية، فيفرض على المرء من داخل ما يجب أن يفكر به،أو ما ينبغي أن يصنعه ويحققه فيشعر بمثله العليا ويشعر بالحاجة إلى إرضائها معاً »[14].

---

[11]– العوا،عادل،العمدة في فلسفة القيم،دار طلاس،دمشق،1986،ص433 .

[12]– قنصوه،صلاح،نظرية القيمة في الفكر المعاصر،دار الثقافة للنشر والتوزيع،القاهرة،1987،ص83 .

[13]– قنصوه،صلاح،نظرية القيمة في الفكر المعاصر،دار الثقافة للنشر والتوزيع،القاهرة،1987،ص 83.

بولان:

إن ريمون بولان يركز على ذاتية الإنسان واجتماعيته، وهو يعتبر أن الإنسان بوصفه فاعلية حرة مصدر القيمة وينبوعها الوحيد،وهو يدعو إلى نوع من التعالي الذاتي،أو التجاوز الذاتي،وبولان يرفض الرأي القائل بأن للقيم المتعالية وجوداً موضوعياً؛إنه يربط تعالي القيمة بمحايثة المعرفة.

لقد نزع بولان عن التعالي لبوسه الموضوعي وسحبه من المجال الإلهي ليجعل منه فعلاً يرتبط بالإنسان وحده ويلازمه باعتباره من مكونات إنسانيته.

لقد ربط بولان بقوة بين الفعالية الإنسانية والقيمة،لكن القيمة عنده ليست شيئاً ناجزاً بشكل نهائي،بل إنها إبداع فاعل ومتواصل،والإبداع يتجلى في رفض المعطى وفي تخيل ما يجب أن يحقق،وفي نشاط يحقق القيمة ويعينها.

إن بولان يرى أن النشاط والتفكير القيمي يغدوان من طبيعة اجتماعية عندما تتحول الآثار والأفكار إلى معايير .

وهنا تكتسب القيمة طابعاً إلزامياً،وتمارس دورها من خلال علاقة قيمية نوعية بين الشعور الجمعي والشعور الفردي « فالشعور الجمعي من حيث بنيته،هو بآن واحد يحايث كل شعور فردي ويعلو عليه»[15]

إن القيمة هي جدل الفردي والجماعي ،الشخصي والمتعالي؛إنها تعال ونفي وإبداع وتجاوز يحتاج إلى الشعور وإلى الزمان الذين ينظر إليهما بوصفهما وسيلتين لتحقق القيمة.

والحقيقة أن القيمة بوصفها إبداعاً ترتبط بالمعرفة وبالفهم الإنسانيين فبولان يرى « أن فكرة الفهم القيمي ترتبط ارتباطا جلياً ومزدوجاً بفكرة إبداع القيم » [16].

كارل ماركس:

لقد انطلق الفيلسوف الألماني كارل ماركس في بناء فلسفته الجدلية من حس تاريخي هائل، فقد كان قارئاً نهماً للتاريخ ومدققاً حاذقاً في النتاج الفكري والفلسفي الذي سبقه، وفي دلالات ذلك النتاج،وقد تأثر في بناء نسقه الفلسفي بشكل أساسي بكل من مادية فيورباخ،وجدل هيغل المثالي،والاقتصاد السياسي الكلاسيكي لدى كل من ديفيد ريكاردو وأدم سميث .

ويتحدث مؤرخو الفلسفة عن الفلسفة الماركسية على أنها تنطوي على ثلاثة أقسام هي: (المادية التاريخية،والمادية الجدلية،والاقتصاد السياسي الماركسي) وهذه الأقسام تؤلف منظومة متكاملة يقدم ماركس من خلالها تفسيراً لأحداث الواقع ولآليات تطوره ولمجمل حركة التاريخ الإنساني .

لقد استطاع ماركس أن يستخلص مجموعة من القوانين الاجتماعية التي تمكن من فهم العلاقات الجدلية بين أفراد النوع الإنساني من جهة وبينهم وبين الواقعين الطبيعي والاجتماعي من جهة أخرى.

وتلك القوانين التي تتصف بالعمومية والشمول اعتبرت مفسرة لحركة التاريخ بمجملها كما صنفت بوصفها شكلاً من أشكال فلسفة التاريخ.

---

[14]– العوا،عادل،العمدة في فلسفة القيم،دار طلاس،دمشق،1986،ص195 .

[15]– العوا،عادل،العمدة في فلسفة القيم،دار طلاس،دمشق،1986،ص259. ع بولان إبداع القيم .

[16]– العوا ،عادل،العمدة في فلسفة القيم،دار طلاس،دمشق،1986،ص262 .

لقد نظر كارل ماركس إلى النشاط الاقتصادي بوصفه بنية تحتية تبنى عليها بنية أخرى (بنية فوقية) وتشمل هذه البنية الأنشطة والفعاليات الثقافية وما تشمل عليه من قيم معرفية وأخلاقية ودينية ومن عادات وتقاليد وأعراف وقوانين مؤسسة على تلك القيم.

وبذلك تكون القيم بالنسبة لماركس هي قيم نسبية وتاريخية متغيرة مرتبطة بالإنسان وبمستوى تطور العلاقات الاجتماعية في العصر الذي تنتج فيه تلك القيم وتسود.

وكان ماركس يؤكد دائماً على دور العمل في بناء الإنسان طبيعة وقيمة وإنجازات،ورغم أنه كان يرى « أن العمل هو جوهر القيم ومقياسها الملازم»[17] . فقد دعا باستمرار إلى تحرير العمل الإنساني من الشروط التي تجسد اغتراب الإنسان وتسلبه إنسانيته؛وكان يرى في المجتمع الاشتراكي المنشود حلاً لمشكلات العمل ولمشكلات الاغتراب ولمشكلات الإنسان وقيمه .

لقد كان ماركس يؤمن بالعلم ويرى فيه قيمة كبرى، ولكنه كان ساعياً باستمرار لتوظيف المعارف العلمية توظيفاً صحيحاً يعلي من شأن الإنسان بدلاً من أن يستعبده ويبعده عن إنسانيته .

إن القيم كلها عند ماركس، سواء أكانت قيماً اقتصادية أم معرفية أم أخلاقية، هي قيم اجتماعية لا تتشكل ولا تكتسب دلالات إلا في بيئات اجتماعية محددة بل « إن قيم البضائع ليس لها إلا حقيقة اجتماعية محض،وإنها لا تكتسبها إلا بمقدار ما هي تعابير عن الوحدة الإجتماعية نفسها عن العمل البشري » [18].

ولقد كان لمفهوم الطبقة ولمفهوم الصراع الطبقي مكانة مركزية في تحليلات ماركس ودراساته الاجتماعية؛حيث رأى أن القيم ترتبط بالإيديولوجيا أي بجملة المصالح الخاصة بفئة أو شريحة أو طبقة، تلك المصالح التي يعبر عنها بأنساق قيمية وبترتيبات وتصنيفات للقيم طبقاً لأولويات تنسجم مع تلك المصالح .

فما يراه الرأسمالي خيراً لا يراه العامل في المصنع كذلك، وما يعتبره العامل أولوية وقيمة عليا لا يعتبره المستثمر كذلك ،وهذا الانشطار في الرؤى والمفاهيم القيمية على هذا النحو كان مرتبطاً بظروف الانشطار الطبقي الذي سعى ماركس لتجاوزه من خلال تحليلاته ومن خلال تصوره لمجتمع الغد ولآليات الوصول إليه.

إن المجتمع المنشود عند ماركس هو مجتمع يحرر الإنسان من واقع الاغتراب الذي عاشه وعانى منه طويلاً ،إنه يحرر الإنسان من أن يكون عبداً للظروف وللمنتجات التي أنتجها بيديه وبدماغه،إنه مجتمع يحرر الإنسان من القيم التي طالما كبلته وأعاقت نموه وشوهت حياته وعلاقاته بذاته وبالإنسان الأخر،وهو يعين على بناء قيم تعلي من شأن الإنسان وتحتضن نشاطه وتنظمه وتؤسس لتطوره ولتصويب علاقاته بذاته وبالأخر ،بماضيه و بحاضره وبمستقبله، وهي بالتحليل الأخير قيم تجعل من الإنسان إنساناً حقيقياً .

رينيه لوسين:

إن لرينيه لوسين خصوصية تتجلى في تركيزه على مبحث القيم وفي تأكيده على الطابع الشمولي والعلائقي للقيمة.

لقد عاش الفيلسوف الفرنسي رينيه لوسين (الأستاذ في السوربون) بين عامي (1882- 1954) وقد كان صاحب مذهب روحي وجودي عبر عنه من خلال مجموعة من المؤلفات منها:

[17]- معجم علم الأخلاق،باشراف إيغور كون،ترجمة توفيق سلوم،دار التقدم ،موسكو،761 .

[18]- ماركس،كارل،رأس المال ،ترجمة محمد عيتاني،منشورات مكتبة المعارف،بيروت،ص 61 .

[الواجب 1931] ، [عائق وقيمة 1938] ، [المصير الشخصي 1955] .

وقد شغلت القضايا الأخلاقية والقيمية مكانة مركزية في فكره الفلسفي،ورغم نزعته الوجودية وتأكيده على الطابع الفردي للشخص الإنساني الذي يتعذر وصفه والتعبير عنه،فقد عني بالمعايير الأخلاقية وبالقيم .

لقد رفض فكرة اسبينوزا عن الطبيعة الطابعة والمطبوعة المكتفية بذاتها،وتنكر للحدس البرغسوني في الديمومة المبدعة.

وتحدث لوسين عن ديمومة ممزقة، وقال بأن الحياة الإنسانية تعصف بالتناقضات،وقال بأن الأخلاق وليدة التناقض ووليدة الحاجة إلى حل التناقض،وتجاوز الفوضى والاضطراب اللذين ينشآن عنه.

ويمكن القول إن لوسين « عمد في الحق إلى توحيد الفلسفة بالفلسفة القيمية،بله بالفلسفة الأخلاقية بوجه خاص» [19].

وقد كان في أراء لوسين القيمية أصالة متميزة « فقد رفض تقاليد جميع المذاهب التي تحاول حبس القيمة في مفهوم، ورأى أنها تتصل بالشعور كله،وأن فعالية الشعور تشرئب باشتدادها إما نحو الأعلى أو نحو الأدنى، ولذا فإنها ثنائية القطب،وهي تحتوي التحديدات بأكثر من تبديدها . ذلك أن القيمة هي بآن واحد ،كما ألمعنا تجربة وإلزام بالتعالي .بل إن التجربة الحسية كالإحساس بالواقع مثلاً،ليست سوى حال نوعية خاصة من أحوال الشعور بالقيمة ،والقيمة تمثل وراء التحديدات التي تضعها.ولا مناص من أن تكون القيمة بذاتها واحدة ولانهائية » [20].

جون ديوي:

يعتبر الفيلسوف الأمريكي جون ديوي واحداً من أهم أقطاب الفكر البراغماتي الذي يربط الصدق بالمنفعة،فمعيار صدق الفكرة عند البرجماتيين هو نفعها الذي يعرف من نتائج تطبيقها في الواقع .

لقد تأثر ديوي بنظرية دارون وبفكر هيغل الأمر الذي بنى لديه إيماناً راسخاً بالتطور، وجعله يربط الفكر بنتائجه العملية رافضاً المجردات والأفكار المطلقة.

لقد أكد ديوي أن التجربة جانب هام من الطبيعة البشرية، وقال بضرورة التمييز بين التجربة وبين أفكارنا عنها،واعتبر أن للفلسفة دوراً في حل المشكلات الحياتية، ومن هنا تبرز أهميتها،ولكنه رفض المجردات ورفض أن يحصر فهم العالم في مجموعة من المفاهيم المغلقة والناجزة إلى الأبد .

لقد أكد على مفهوم الصيرورة،وأكد على منهج تجريبي يتحقق الإبداع من خلاله؛حيث ينتج الفكر لدى تصدي الإنسان للعقبات ومعالجته للصعوبات .

وعندما ينتج الإنسان فكرة ناجعة تساعد على مواجة تحديات الحياة في ظرف معين فإن هذه الفكرة تتصف بالقيمة،وتزداد قيمتها بمقدار ازدياد نجاعتها.

لكن قراءة التاريخ تبين لنا أن نجاعة الفكرة ليست أمراً مطلقاً،فالفكرة قد تكون نافعة وناجعة في مكان وزمان معينين وغير نافعة، وربما تكون ضارة في مواقف أخرى،ولذا فإن القيم نسبية وليست مطلقة.

---

[19]– العوا،عادل،العمدة في فلسفة القيم،دار طلاس،دمشق،1986،ص247 .

[20]– العوا،عادل،العمدة في فلسفة القيم،دار طلاس،دمشق،1986،ص252 .

ويجب ألا ينظر إلى الأفكار بشكل مجرد وبمعزل عن السياق الذي نشأت فيه، فالأفكار « كل الأفكار أدوات في خدمة الحياة، أي الحياة في مجتمع راهن معين » [21].

وتأسيساً على ذلك يرفض ديوي الإيمان بخير مطلق أو شر مطلق، ويؤكد على النسبية وعلى ضرورة أن يكون للفلسفة أبعاد عملية بدل أن تستنذف في البحث عن المجردات والجواهر والحقائق المطلقة؛ومن هنا كانت اهتماماته التربوية، لأن التربية عندما تسهم في نقل قيم المجتمع وعندما تسهم بالتأسيس لتطورها،فإنها تؤسس لمواجهة التحديات وتحقق ربط الفكر بالعمل لأن « الفكر هو آلة إعادة التكيف والمؤالفة » [22].

إن ديوي الرافض للمطلقات يؤكد على ربط الفكر الفلسفي بواقعه وبمشكلات هذا الواقع،مع تأكيده الدائم على دور الفلسفة في حل تلك المشكلات.

وقد ربط ربطاً وثيقاً، وعلى نحو لافت للنظر، بين الفلسفة والتربية مؤكداً على الأبعاد الفلسفية للتربية وعلى الأبعاد التربوية للفلسفة وقد رأى « أن الفلسفة الأوربية عند الإثنيين قد نشأت في ظل الحاجة الملحة إلى حل القضايا التربوية » [23].

وكثيراً ما رأى ديوي بأن الفلسفة هي نظرية عامة للتربية،وعلى هذا فإن قيمة الفكر الفلسفي تنزع عنه إن لم يكن له نتائج عملية في التربية.

إن التربية معنية بمراجعة القيم ونقدها وتطويرها،وبيان آليات تشكلها،ولا يقتصر دورها على تلقين القيم وتعليمها،بل يعتبر التفكير النقدي وتنميته ونشره غاية للفلسفة وللتربية عند ديوي وهو يقول : « لن تجد الفلسفة سبيلاً للنجاح في مهمتها إلا أن يكون لها ما يقابلها في التربية، مما يدلنا على ما ينبغي وعلى ما لا ينبغي فعله »[24].

النتائج والمناقشة:

استنادا إلى ما تم عرضه والتدقيق فيه من أراء ومواقف مختلفة فيما يتعلق بطبيعة القيم وارتباطاتها تبين لنا أن للخلافات الفلسفية دلالات متعددة ومتجددة مرتكزة بشكل أساسي على عاملين أساسيين أولهما إيديولوجي والثاني معرفي،وهما متداخلان في تأثيراتهما،وفي انعكاسهما في العمل، وسنركز في عنوانين فرعيين على علاقة القيم بكل من الإيديولوجية والعمل.

دور القيم وعلاقتها بالإيديولوجية:

إن للقيم علاقة وثيقة بالفعالية الإنسانية،فلا يمكن فصل القيم عن الفعالية الإنسانية،ولا يمكن فصل الفعالية الإنسانية عن القيم،وإن فصلاً من هذا النوع يفضي إلى ضبابية واضطراب في الفهم وإلى اعتلال في السلوك، فإن للقيم دوراً كبيراً في حياة الإنسان يتجلى في بناء الاتجاهات واستنهاض الطاقات وتوجيه الفعاليات وضبط السلوك الإنساني وتنظيمه والتأسيس لارتقائه .

---

[21]– العوا،عادل،العمدة في فلسفة القيم،دار طلاس،دمشق،1986،ص171 .

[22] العوا،عادل،العمدة في فلسفة القيم،دار طلاس،دمشق،1986،ص173 .

[23]– ديوي،جون،الديمقراطية والتربية،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة،1946،ص337 .

[24]- ديوي،جون،الديمقراطية والتربية،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة،1946،ص337 .

إن ضرورات الاجتماع الإنساني وضرورات العيش المشترك من توفير الأمن والسلام إلى تأمين الحاجات المادية والمعنوية بكل تنوعاتها وتلوناتها هي التي دفعت إلى إنتاج منظومات من القيم تعمل على حل مشكلات الإنسان التي تنهك قواه وتبدد طاقاته في نشاطات سلبية تبعد الإنسان عن إنسانيته وإلى إنضاجها وتطويرها، ولا يقتصر دور القيم على حل المشكلات، بل إن لها دوراً تنموياً يتجلى في شحذ الإمكانات وفي التأسيس للإنجازات والتطورات .

إن القيم عندما تقوم بدورها وتمارس تأثيرها على الحياة الإنسانية لا تعمل بشكل منفصل، بل إنها تتفاعل وتتداخل في تأثيراتها على أداء الأفراد وعلى إنجازاتهم، كما أنها تنتظم في أنساق وسلالم قيمية، ويخضع بعضها لبعضها الأخر، فليست القيم الحسية بمستوى القيم العقلية أو الأخلاقية، ورغم تفاعل القيم واعتماد بعضها على بعضها الأخر تظل القيم الأخلاقية متمتعة بمكانة خاصة في سلم القيم، وهي مكانة ذات علاقة بالرقي والتحضر والتأسيس للتجاوز و إن « المرء ليرقى بالقيمة الأخلاقية فوق مطالب الحياة البيولوجية والاقتصادية، وليس من ينكر أن على المرء أن يتغذى ويلبس ويقطن وينتقل ويستخدم أدوات تساعده على نجوع أعماله ... ولكن هذه المطالب القيمية الضرورية أو النافعة تبقى خاضعة للحاجات الفزيولوجية التي تخضع بدورها لتعاليم القيم الأخلاقية وأوامرها » [25]. وإن كون بعض القيم تعلو في سلم الأولويات على غيرها لايلغي حقيقة أن القيم تعتمد على بعضها البعض، وتتكامل مع بعضها البعض في إطار الفعالية الإنسانية التي تتصف بالتغير والتجدد والديناميكية.

إن الدراسة التتبعية للفعالية القيمية في أماكن وأزمنة مختلفة تظهر اختلاف القيم وتغيرها تبعاً لتغير احتياجات الإنسان التي يحكم تغيرها تداخل وتفاعل مجموعة من العوامل القابلة للملاحظة وللدراسة المنهجية.

فكل مستوى من مستويات التطور الاجتماعي والاقتصادي والتقني يحتاج إلى منظومات قيمية تناسب هذا المستوى وتلائمه لتنجح في تنظيم نشاطاته واحتضان فعالياته وإنجازاته،ومن الخطأ الحديث عن قيم تعلو بمضامينها وتعيناتها على التغير، فإن حديثاً من هذا النوع يعني أن الإنسان لا يتطور وهذا يتنافى مع واقع الحال ومع ما تشير إليه قراءة التاريخ،وهو يرتبط بفهم إيديولوجي يسعى لتكريس واقع ما والدفاع عن شرعيته وتأبيده، وهو يؤسس لاستنساخات قبيحة لهذا الفهم البائس،وإن كان ثمة استثناءات على القول بالتغير القيمي، أو كان هناك قيم ثابتة، فإن هذه القيم هي القيم المرتبطة بالإنسان من حيث كونه إنساناً، أو المرتبطة بالإنسان من حيث أنه يشكل بذاته قيمة .

وللعوامل الإيديولوجية دور كبير في تغير القيم واختلافها، وفي ترتيب سلم أولوياتها،فللفرق المتصارعة إيديولوجياً منظومات قيمية مختلفة تشكل بعداً أساسياً من أبعاد هوياتها، والتي يفترض أن يكون ثباتها ثباتاً نسبياً، إذا وضع في سياقه التاريخي وفي إطاره الكلي،ففي سياق حركة التاريخ وعبر الصراعات الإيديولوجية تنحت القيم وتعدل وتطور ويعاد بناؤها لتلبي متطلبات متجددة واحتياجات مختلفة.

إن قيم الحق والخير والجمالو وغيرها، تنطوي على مضامين متحركة يتم تصورها والتعبير عنها على أنحاء مختلفة باختلاف الانتماءات الإيديولوجية لهذا الفريق أو ذاك،فما هو خير من وجهة نظر العمال ليس كذلك من وجهة نظر أصحاب العمل،وما هو صحيح وخير من وجهة نظر أبناء بلد ما ليس كذلك من وجهة نظر أبناء بلد أخر يخوض معه حروباً وصراعات.

ورغم نسبية القيم وتغيرها لاعتبارات إيديولوجية ومعرفية، فإن هنالك جانباً عاماً في القيم بشكل عام وفي القيم الأخلاقية بشكل خاص، فمن يستطيع أن ينكر أن الإنسان قيمة في ذاته؟.... « إن التصورات الأخلاقية تتدرج في

[25]- العوا،عادل،آفاق الحضارة،وزارة الثقافة،دمشق،2001،ص50 .

إيديولوجية المجتمع، ففيها تنعكس مصالح ومتطلبات اجتماعية معينة ولكن إلى جانب المضمون الطبقي ثمة عنصر إنساني عام في الأخلاق » [26].

وتختلف تأثيرات المنظومات القيمية التي ينتجها ويتبناها هذا الفريق أو ذاك،فهناك منظومات قيمية تشد إلى الخلف، وهناك منظومات قيمية أخرى تدفع إلى التطور والارتقاء، وهذه المنظومات تتفاعل وتتصارع وتحترب عبر نشاطات الناس لتسهم بكليتها وبتكامل تأثيراتها في تعميق إنسانية الإنسان وفي وضعه على الطريق القويم.

إن الإنسان في تفاعله مع الطبيعة وفي تفاعله مع أبناء جنسه كان يحتاج إلى القيم وكان ينتج القيم، التي كانت تقوم بدور نوعي في بنائه وفي إعادة بنائه وفي فتح آفاق رحبة أمام تطوره وارتقائه،وكان كل من الإنسان والقيم يضطلع بدور في تغيير الأخر وتطويره،وكان تغير الإنسان والقيم يتم بشكل متدرج وغير منظور في معظم الأحيان، وإن كانت هناك تغيرات سريعة ثورية وحاسمة في بعض الأحيان.

إن الثورات التي كانت تحدث في التاريخ الإنساني، كانت تعني ضمن ما تعني تمرداً على منظومات قيمية معينة وتعبيراً عن احتياجات وطرحاً لمنظومات أخرى بديلة.

إن الثورة الزراعية عندما تحققت في التاريخ الإنساني، أزاحت قيماً وعدلت قيماً وبنت ونشرت قيماً أخرى تستجيب للتطورات والمتغيرات وتواكبها،وكذلك كان الحال مع اختراع الطباعة ومع الثورة الصناعية التي نقلت البشرية إلى نمط جديد من العلاقات يحتاج إلى نواظم قيمية جديدة تؤطر النشاط الإنساني وتنظمه في هذا المستوى من التطور،والآن تشكل المرحلة العولمية مناسبة لإعادة النظر في القيم المعايير،ولإعادة بناء الكثير منها على أسس جديدة وعصرية .

القيم والعمل بين التأثر والتأثير:

إن للقيم حسب الرؤية الجدلية الديناميكية علاقة وثيقة بالعمل وبالإنجاز ،فمنظومات القيم في عصر ما تعكس مستوى معيناً من مستويات التطور وتؤسس لأنماط ومستويات أخرى من العلاقات الإنسانية يفترض أن تكون أكثر رقياً وأكثر تطوراً .

إن القيم السائدة في مجتمع ما هي التي تحدد السمات العامة للسلوك في هذا المجتمع وهي التي تحكم إلى حد كبير العمل ونتائجه،ومن خلال العمل وعبر سيرورته تمتحن القيم ويعاد بناؤها، وتتشكل قيم جديدة تؤسس لأشكال جديدة من العمل والسلوك.

فحسب المنطق الجدلي الذي يؤكد علاقة التأثير والتأثر المتبادلين بين منظومات القيم الفكرية والمعرفية وبين الواقع؛يكون استيعاب معطيات الواقع ومستجداته، وتمثلها وإدراك متطلباتها إيذاناً بتغير في العقلية الاجتماعية بما تحويه من مفاهيم وقيم ومن سلالم للأولويات ومعايير للسلوك،وذلك التغيير هو الذي يؤسس لتغيرات وإنجازات في الواقع في سياق العملية الجدلية بين الفكر والواقع « لأن أي تغير أو تحول تاريخي لا يمكنه أن يتحقق ما لم يسجل حضوره في دورة الاعتقاد والبنية العقلية لشعب من الشعوب أو أمة من الأمم » [27]. والاعتقاد هو انحياز لقيم، وهو تأسيس وتوجيه للعمل، والعمل هو الذي يغير الطبيعة ويغير الإنسان ويعطي للمواقف والأنشطة والأشياء قيمها ودلالاتها، وهو بحد ذاته قيمة كبرى وقيمة مؤسسة للقيم.

[26]- معجم علم الأخلاق، بإشراف إيغور كون، ترجمة توفيق سلوم ، دار التقدم ،موسكو،ص309 .

[27]– وطفة،علي،الجمود والتجديد في العقلية العربية،– مكاشفات نقدية – سلسلة آفاق ثقافية 45 – وزارة الثقافة،دمشق،2007،ص308 .

ولكن ما العمل؟ وما العمل المغير؟ وهل يصح أن نسمي الأنشطة وردود الأفعال المحكومة بالغرائز عملاً.....؟

بالتأكيد : لا...لأن العمل هو نشاط إنساني يرتبط بالإنسان من حيث هو كائن عاقل ونحن« نطلق اسم العمل على تركيب ذي دلالة،تركيب حركات تستهدف غاية،والغاية التي يتطلع إليها العمل هي التي تسبغ عليه معناه .فالعمل على هذا النحو هو وسيلة لغاية ويكون العمل بالضرورة فعل فاعل من أجل غاية،وإذ ذاك نستطيع أن نعزو نتاج الفعل إلى فاعل معين يرتبط به،ويحمل مسؤوليته.وأما العمل بذاته فهو نضد مواد أو أفكار وإعادة تركيبها أو تأليفها على نحو يحقق الهدف المرموق . ومن الجلي أن لكل من العمل والغاية والفاعل قيمة مميزة خاصة به من جهة ومتكاملة مع القيمة الشاملة للجملة من جهة أخرى »[28] .

فالغائية والقصدية والعقلانية هي من مشّكلات العمل وأساسياته.

وتدرك المجتمعات المتحضرة أهمية العمل في صنع احتياجات الإنسان وفي صنع الإنسان ذاته،وإذا كانت المجتمعات تطالب باحترام قيمها عبر آليات مختلفة للضبط الاجتماعي وتعتبر التمسك بقيمها مبدئية تحترم وتُجلّ «فإن أرفع أشكال المبدئية هو الإتساق بين القناعات والممارسات»[29] .

ويعتبر ربط القول بالعمل والانسجام بين الأفعال والطروحات قضية أخلاقية وقيمة كبرى ومطلباً لدى المجتمعات الإنسانية في العصور المختلفة والأماكن المختلفة « فإن كل اجتماع للبشر يطالب أفراده بدعم القول بالعمل» [30].

الخاتمة:

تؤكد نتيجة البحث على الفرض الذي تم امتحانه من خلال التدقيق في الآراء الفلسفية المختلفة حول طبيعة القيم،والذي مفاده أن القيم تتصف بالتغير والديناميكية،وإن استندت على منطلقات ومبادئ إنسانية كبرى،وأن تغيرها يفسر بتداخل وتفاعل عوامل معرفية وإيديولوجية مرتبطة بهذا المستوى من التطور أو ذاك.

وتؤكد النتيجة على كون مبحث القيم واحداً من أكثر البحوث الفلسفية غنى وأهمية،وهو مبحث يكتسب أهمية متجددة على الدوام لارتباطه بالنشاط الإنساني وبالطموحات التي يسعى إليها،ولارتباطه بالإنجازات التي يحققها الإنسان وبالإخفاقات التي يمنى بها.

ولابد من النظر إلى القيم نظرة ديناميكية إن أردنا البعد عن الجمود،وإن أردنا للإنسان أن يتجاوز ذاته وواقعه باستمرار،وإن أردنا قبل هذا وذاك أن يحقق الإنسان إنسانيته بأفضل ما يكون التحقيق.

---

[28]– العوا،عادل،العمدة في فلسفة القيم،دار طلاس،دمشق،1986،ص518 .

[29] – معجم علم الأخلاق،باشراف إيغور كون،ترجمة توفيق سلوم ،دار التقدم ،موسكو،ص352 .

[30]– معجم علم الأخلاق،بإشراف إيغوركون،ترجمة توفيق سلوم،دار التقدم،موسكو،ص419 .

المراجع:

1. لالاند،أندريه،العقل والمعايير،ترجمة عادل العوا،مطبعة الشركة العربية،دمشق،1966.
2. العجيلي،محمد علي،الأخلاق عند فرويد،دار طلاس،دمشق،1989،ط1.
3. ديوي،جون،الديمقراطية والتربية،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة،1946.
4. العوا،عادل،آفاق الحضارة،وزارة الثقافة،دمشق،2001.
5. العوا،عادل،العمدة في فلسفة القيم،دار طلاس،دمشق،1986.
6. قنصوه،صلاح،نظرية القيمة في الفكر المعاصر،دار الثقافة للنشر والتوزيع،القاهرة،1987.
7. ماركس،كارل،رأس المال ،ترجمة محمد عيتاني،منشورات مكتبة المعارف،بيروت.
8. معجم علم الأخلاق،باشراف إيغور كون،ترجمة توفيق سلوم،دار التقدم ،موسكو.
9. وطفة،علي،الجمود والتجديد في العقلية العربية،- مكاشفات نقدية – سلسلة آفاق ثقافية 45 – وزارة الثقافة،دمشق،2007 .